

## ■ الجزء الأول

حروب الجيل الرابع

بين الرواية الأمريكية والرواية المصرية

obeikandi.com

## تمهيد

على الرغم من أن نظرية "حروب الجيل الرابع" قد نشأت في أحضان مراكز الأبحاث الأمريكية لتفسير الصعوبات التي تواجهها أمريكا وحلفائها في التصدي لحركات المقاومة (التي يصفونها بالإرهابية) والجماعات المسلحة من غير الدول، وللتحذير من أن الولايات المتحدة وفق استراتيجيتها العسكرية السائدة قد لا تكون في الوضع الذي يمكنها من خوض هذا النوع من الحروب؛ فإن هذه النظرية الأمريكية "الخالصة" قد تلتقتها أنظمة عربية (سوف تركز الورقة على النظام المصري)<sup>(1)</sup> لتفسر من خلالها الصعوبات التي تواجهها منذ نشوب ثورات الربيع العربي، ولتبرر الإجراءات التي اتخذتها لكبح اندفاع عملية التغيير الشامل، متهمه

(1) بخلاف النظام المصري، يستخدم معلقون موالون لنظام الرئيس السوري بشار الأسد النظرية بكثافة، لوصف ونقد الحراك الثوري الذي تشهده سوريا منذ انطلاق شرارة الربيع العربي. انظر على سبيل المثال: جمال الدين خضور، سورية وحروب الجيل الرابع، وكالة أوقات الشام الإخبارية، 8 أغسطس 2014، على الرابط: <http://www.shaamtimes.net/news-detailz.php?id=10156>، مها جميل الباشا، حرب الجيل الرابع وخفاياه، صحيفة المنار، 17 مارس 2015، على الرابط: <http://www.manar.com/page-23872-ar.html>

”أمريكا“ (وقوى أخرى غير متجانسة) بالوقوف وراء الفوضى التي عمت العالم العربي إبان هذه الثورات، وذلك بزعم رغبة هذه القوى في خلق واقع جديد على الأرض، يقوم على تفكيك الدول العربية وإفصالها، كمقدمة لإحكام السيطرة عليها. وهكذا صار للنظرية روايتان مختلفتان حول طبيعة التهديد الذي يمثله هذا النمط من الحروب، وحول الطرف الذي يقف وراءها.

فما حقيقة هذه النظرية وما هي مقولاتها الأصلية، وكيف تم تأويلها من قبل الأطراف المختلفة التي تبنتها، وما أوجه الاتفاق والاختلاف بين رواياتها المتباينة؟ أسئلة سوف تحاول هذه الدراسة إجابتها، مع التطرق لعدد من القضايا ذات الصلة، وأبرزها الكيفية التي تناولت من خلالها نظرية حروب الجيل الرابع: ”الإسلام السياسي“، فضلاً عن مناقشة للاتهامات التي وجهت إلى ثورات الربيع العربي بأنها وليدة هذا النوع من الحروب.

(1)

## نشأة المفهوم وبداية القصة

ظهر مفهوم "حروب الجيل الرابع" في أواخر ثمانينيات القرن الفائت، في إطار تفكير معاهد الأبحاث الأمريكية "المحافظة" في أنسب الطرق لمواجهة الجماعات المقاتلة غير النظامية (مثل حزب الله وحماس). وذلك بعد التجارب شبه الفاشلة للعسكرية الأمريكية في كل من فيتنام وشبه الجزيرة الكورية. وكان أول ظهور للمفهوم في مقالة لكل من ويليام ليند، وجون شميت، وجوزيف ساتون، وجاري ويلسون، في عام 1989 بعنوان "The Changing Face of War: Into the Fourth Generation" (1). ثم عاد "ويليام ليند" بمفرده للكتابة حول هذا الموضوع في مقال بعنوان "Understanding Fourth Generation War" نشره في مجلة Military Review، في عام (2) 2004.

- (1) William S. Lind, Keith Nightengale, John F. Schmitt, Joseph W. Sutton, and Gary I. Wilson, The Changing Face of War: Into the Fourth Generation, Marine Corps Gazette, November 2001.
- (2) William. S. Lind, Understanding fourth Generation Warfare, Alabama: The Air University, Air War College, Military review. 2004.

وقد اكتسب المفهوم شهرته مطلع التسعينيات بسبب تداعيات حرب العراق، وما تزامن معها من هجمات حملت توقيع تنظيم القاعدة في العديد من دول العالم، ثم تأكد استخدام المفهوم مع تورط الولايات المتحدة في الصومال، ثم تعرضها لهجمات 11 سبتمبر، وإعلانها الحرب على حركة طالبان في أفغانستان، ثم شنها حرب العراق الثانية، وهى الأزمات التي تحول بسببها المفهوم إلى ما يشبه النظرية التفسيرية<sup>(1)</sup>.

ملخص المفهوم/ النظرية أن الحرب الحديثة قد تطورت من استخدام "القوة البشرية المكثفة"، إلى استخدام "قوة النيران"، إلى استخدام "المناورات"، وأخيراً إلى استخدام "توليفة من الأدوات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية"؛ لإقناع الخصم أن أهدافه إما غير قابلة للتحقيق أو مكلفة للغاية. والأمر المهم أن الطرف الذي يشن الحروب في جيلها الرابع - وفقاً للنظرية - هو فاعل من غير الدول؛ ميليشا أو جماعة مسلحة.

بهذا المعنى تكون نظرية "حروب الجيل الرابع" قد خرجت عن كونها نظرية في الاستراتيجية العسكرية؛ لتصبح ذات "طبيعة سياسية" أيضاً، فإذا كانت الأجيال الثلاثة الأولى من الحروب قد تضمنت قرارات تأخذها

(1) حتى إن وليم ليند قد أتاح ما أسماه دليلاً كاملاً عن النظرية على الرابط: [http://www.military.com/ContentFiles/4gw\\_manual\\_draft.doc](http://www.military.com/ContentFiles/4gw_manual_draft.doc)

سلطات مركزية لدول ذات سيادة، فإن ما تؤكدُه النظرية - فضلاً عن أن ثمة نمطاً رابعاً من الحروب يأخذ طريقه إلى التشكل - هو أن هناك فواعل سياسية جديدة أصبحت تمتلك اتخاذ قرار الحرب الذي كان محجوزاً من قبل للدول.

بعبارة أخرى فإن ما تتنبأ به النظرية ليس أن الدول ستلجأ في المستقبل على نحو متزايد لاستخدام هذا النمط من الحروب للتدخل في شئون دول أخرى، ولكن أن الحروب ما بين الدول ستراجع لصالح نزاعات تشب بين الجيوش النظامية وجماعات أو فواعل من غير الدول<sup>(1)</sup>.

هذا وينتمي الكثير من أنصار نظرية "حروب الجيل الرابع" إلى معسكر المحافظين التقليديين Paleo-conservatives ممن يؤكدون على فوائد العزلة، وأهمية عدم تورط الولايات المتحدة في حروب خارج أراضيها لأغراض إنسانية أو ما شابه<sup>(2)</sup>. وعلى العكس من المحافظين الجدد الذين يسعون لبناء "إمبراطورية أمريكية" من خلال تقنيات الفوضى الخلاقة والتدخل الخشن في شئون الآخرين، يسعى التقليديون إلى المحافظة على

(1) George Friedman, Beyond Fourth Generation Warfare, ROA National Security Report, September 2007.

(2) من أهم المتتبعين إلى هذا التيار المنظر الأساسي لنظرية حروب الجيل الرابع وليم ليند William Sturgiss Lind، والذي يوصف بأنه Director of the Center for Cultural Conservatism at the Free Congress Foundation

الجمهورية، ويؤكدون على أهمية الحفاظ على نقاء القيم الأمريكية، من خلال تقليل الاحتكاك مع الأمم الأخرى المغيرة حضارياً<sup>(1)</sup>.

نظرية حروب الجيل الرابع، تنبثق بهذا المعنى عن نزعة غير تدخلية لدى مطوريها من المحافظين التقليديين، فالنظرية تناقش سبل الحفاظ على الداخل الأمريكي من خلال استراتيجيات لصد هجمات الجماعات المتمردة المناوئة للثقافة الغربية، بعبارة أخرى تقدم النظرية مفهوماً دفاعياً، بدرجة كبيرة، وهو عكس الانطباع الذي تستخدم في إطاره من قبل الأنظمة العربية، التي تستحضر النظرية للإيحاء برغبة الآخرين (أمريكا وحلفائها) في الهجوم عليها والتأثير في شئونها الداخلية.

### نهاية الدولة وبداية حروب الجيل الرابع

بشكل عام يتفق منظروا حروب الجيل الرابع مع الطرح الذي يعتقد بـ/ يحذر من تراجع "الدولة القومية" وخصوصاً في إطار منظومة دول العالم الثالث، أو أنظمة ما بعد الاستعمار. ومن بين الأسباب التي تُطرح

---

(1) تخلط العديد من الدراسات بين مفهومي "حروب الجيل الرابع"، و"الفوضى الخلاقة"، بناء على خلط أعمق بين اتجاهات التيار المحافظ داخل الولايات المتحدة الأمريكية، لمراجعة نموذج لهذا الالتباس انظر دراسة ضياء الدين ظاهر، الحروب غير المتكافئة، الجيل الرابع وما بعده، كتابات الإخبارية، 10 مارس 2015، إبراهيم الصياد، الفكر الشيطاني وحروب الجيل الرابع، البوابة، 25 فبراير 2015، على الرابط: <http://www.albawabhnews.com/1137008>

لتفسير ذلك التخصيص تختار النظرية ذلك المتعلق بتعثر عملية التحديث في العديد من هذه الدول، الأمر الذي أفرز عددًا من الأنظمة الفاشلة التي لم تستطع أن تفي بمتطلبات وشروط الدولة الحديثة، وخصوصًا ما يتعلق بشرط المواطنة، فهذه الأنظمة لم تنجح في أن تقدم لشعوبها من الحقوق والامتيازات ما تستحوذ به على ولائهم السياسي، ولم تنجح من ثم في جعل رابطة المواطنة تعلق على غيرها من الروابط، ما أدى إلى تراجع الولاء السياسي للأفراد إلى الدوائر الأولية (ما قبل السياسية)، مثل الدوائر الدينية، والعرقية، والعشائرية. وهكذا لم تعد المواطنة هي قوة الجذب المركزي، كما كان الحال إبان نشأة دولة ما بعد الاستقلال، وإنما أصبحت ثمة مراكز جذب أخرى، تتمثل في الدين والعرق والعشيرة.

ومما سهل من عمليات "الجذب" في مواجهة عمليات "الطرد" تنامي وسائل الاتصال وتبادل المعلومات بين الأفراد بعيدًا عن أعين الأنظمة، بحيث أصبح في مقدور الأفراد أن يجدوا المتشابهين معهم مهما تئات بهم السبل؛ ليشكلوا معًا تكوينات لا تخضع لسلطة الدولة ولا لسيادتها، بل ويمارس (بعضها) العنف ضد الدولة، في إطار فواعل جديدة من غير الدول، تراحم الدول في صلاحيتها وتوجه لها تهديدًا عسكريًا ووجوديًا في بعض الأحيان.

وعلى هذا الأساس تفترض النظرية أن الدولة الحديثة قد فقدت - ضمن ما فقدت - احتكارها لقرار الحرب، وأصبحت مضطرة للدخول في مواجهات/ حروب ضد تكوينات غير نظامية، منتشرة عبر العالم،

تستخدم إلى جانب "قوة السلاح"، وسائل "القوة الناعمة"، وعلى رأسها المعلومات، وتتمتع بالمقدرة على شن حروب، لا تستهدف من خلالها هزيمة خصومها عسكرياً، ولكن تحطيم إرادتهم السياسية، وإقناعهم بعدم جدوى الاستمرار في مواجهة هذه الكوينات المقاتلة، وهو ما تحقق فعلياً في العديد من الحالات.

ففي الوقت الذي لم تتمكن فيه أي دولة عادية من أن تحارب فضلاً عن أن توقع الهزيمة بأي من الدول الكبرى في إطار النظام الدولي المعاصر، فإنه من خلال هذا النوع من الحروب ذاق عدد من هذه الدول الهزيمة على يد جماعات أضعف منها بالمقاييس التقليدية للقوة. فتعرضت أمريكا للهزيمة (وفقاً لتعريف النظرية لمفهوم الهزيمة) في كل من فيتنام، ولبنان، والصومال، وأفغانستان والعراق<sup>(1)</sup>. كما تعرضت القوات الفرنسية للهزيمة في كل من فيتنام والجزائر، وتعرض الروس للهزيمة في أفغانستان، ثم لانكسارات خطيرة في الشيشان<sup>(2)</sup>. الأمر الذي يعكس وفقاً للنظرية تغيراً

(1) انظر على سبيل المثال:

Greg Wilcox and Gary I. Wilson, Military Response to Fourth Generation Warfare in Afghanistan, Defense and the National Interest, 5 May 2002.

(2) See Ivan Safranchuk, Chechnya: Russia's Experience of Asymmetrical Warfar, Terrorism Project, Center for Defense Information, 19 November 2002, at: <http://www.southasiaanalysis.org/paper619>

في علاقات القوة، وفي الطريقة التي بات يُنظر من خلالها إلى كيفية إحراز النصر، ففي كل هذه الأمثلة تمكن الطرف الأضعف، من إجبار الطرف الأقوى على العدول عن هدفه، وإقناعه (قسراً) بعدم جدوى الاستمرار في محاولة تحقيقه. وفيما لا يمثل هذا انتصاراً وفقاً للمعنى التقليدي، فإنه على الأقل يمثل غلبة لكفة الطرف الذي تبني هذا النوع من الاستراتيجيات<sup>(1)</sup>.

- 
- (1) Ivan Arreguín -Toft, How a superpower can end up losing to the little guys. Neiman Watchdog. at: <http://www.neimanwatchdog.org/index.cfm?fuseaction=background.view&backgroundid=00163&stoplayout=true&print=true>. March 23, 2007. Jeffrey Record, Why the Strong Lose. Parameters, Winter 2005, pp. 16: 31

(2)

### الأجيال الأربعة للحرب<sup>(1)</sup>

تفترض النظرية أن "الحرب الحديثة" ظاهرة ولدت مع صلح ويستفاليا 1648، الذي أسس لنظام الدولة القومية، وأنهى حرب الثلاثين عامًا التي نشبت لأسباب دينية. فمنذ ذلك التاريخ احتكرت "الدولة القومية" قرار الحرب، كواحدة من أدواتها السياسية لحماية مصالحها وأهدافها، واعتبر على نطاق واسع أنه من غير المسموح أن تنشأ الحروب لأي أسباب لا تتعلق بحماية مصالح الدول، أو بين أي أطراف من غير الدول.

ثمة نقطة أقرب يؤرخ من خلالها البعض لبداية الحرب الحديثة تتمثل في بدء ظاهرة التجنيد الإلزامي، خلال الحروب النابوليونية، والتي أنهت الاعتماد على الجنود المرتزقة، ودشنت ظهور الجندي النظامي المجند في إطار من الولاء لدولة بعينها. وأياً ما كان التاريخ الدقيق لبداية ظهورها، وانطلاقاً من احتكار الدولة لقرار الحرب، تفترض النظرية أن الحروب الحديثة قد تحركت عبر أربعة أجيال:

(1) لاستعراض تفاصيل أجيال الحروب على نحو مسهب؛ انظر:

Scott Davis. American military history and its insights into fourth generation warfare. US Army Command and General Staff College. 2006.

## الجيل الأول

في إطار حروب هذا الجيل أخذت المعارك شكل مواجهة مباشرة بين جيوش نظامية؛ حيث يخطط ميدان القتال (أرض المعركة) بطريقة هندسية، يصطف في إطارها الجنود من الطرفين المتقاتلين في مواجهة بعضهم البعض في صفوف متوازية، وإمعاناً في الحفاظ على الانتظام كانت القوات المتقاتلة تتحرك تجاه بعضها البعض على إيقاع دقات الطبول، تحت توجيه قيادات مركزية من ذوي الرتب الأعلى.

وفي إطار هذا الجيل من الحروب كانت أدوات الحرب بدائية، كما كان القتال يعتمد على الاشتباك المباشر بين المتقاتلين. ولكن ما يميز هذه المرحلة هو ارتباطها بمعنى "النظام" ORDER، فطريقة إعداد أرض المعركة، وطريقة اصطفاف الجنود كانت تعكس تصوراً ذهنياً منظماً للحرب، وهو نفس التصور الذي يعكس الفارق بين الحياة العسكرية الرسمية ذات التقاليد المنضبطة والحياة المدنية (ذات التقاليد الأقل انضباطاً)؛ حيث الأولى توصف بأنها نموذج للنظام في أقصى صورته، فيما الثانية توصف بأنها مثال للعشوائية!

بدأت المشاكل تواجه هذا النمط المنظم من أنماط الحروب - وفقاً للنظرية - منذ منتصف القرن التاسع عشر. فمع تطور الأسلحة، وأدوات القتال، صار اصطفاف الجنود في مواجهة بعضهم البعض نوعاً من الانتحار، وأصبحت الطريقة التقليدية لتنظيم ساحات المعارك غير متوافقة

مع التطور الذي لحق أدوات الحرب، وهذا ما دفع مخططي الحروب إلى إعادة التفكير بشأنها، إيدانًا ببداية الجيل الثاني.

## الجيل الثاني

بدأ الجيل الثاني من الحروب بالتزامن مع محاولة حل التناقض بين عقلية النظام العسكري (الانضباطية) وبين التطور الذي لحق أدوات القتال. وينسب المؤرخون العسكريون الفضل للجيش الفرنسي في تدشين هذا النمط من الحروب، عبر استخدامه قوة النيران المجمعة، بهدف استنزاف قوة الخصم. وقد لخص العسكريون الفرنسيون هذه الاستراتيجية في مقولة "المدفعية تكتسح، والمشاة يحتلون المواقع".

ورغم هذا التغيير في الأدوات فقد ظل "التخطيط المركزي" أساسياً في إطار هذا النمط من الحروب. ففي إطار هذا الجيل تمت إعادة ترتيب ساحة المعارك من خلال تقديم المدرعات والقطع الحربية على الأفراد، ولكن لم يتم التضحية بمفهوم الانتظام، فقد ظل جزء كبير من الاهتمام ينصبُّ على الشكل أو الطريقة التي تنظم بها ساحة القتال، كما جرى التأكيد على ضرورة ألا تخالف الاعتبارات الجديدة المعايير الصارمة المنظمة للأسلوب العسكري، فالانضباط وتدرج الأوامر من أعلى إلى أسفل والتقدم على الأرض بهدف الاستيلاء على مواقع العدو؛ كل هذه العناصر ظلت حاسمة في إدارة العمليات العسكرية. وحتى عندما حل الطيران محل المدرعات كمصدر للقوة العسكرية الحاسمة - وفقاً للنظرية - لم يتغير

الأمر كثيراً، إذ ظلت مفاهيم النظام والانضباط سيدة الموقف. فالطيران يقصف من الجو، والمدرعات تتقدم على الأرض، والجنود يتحركون تحت حمايتهما في ظل توجيه مركزي صارم.

### الجيل الثالث

مع تزايد قوة النيران، وغلبة التشتت على ساحة المعارك (فقدت شكلها الانتظامي الانضباطي) أصبحت "المناوره" هي كلمة السر في إطار الجيل الثالث من الحروب، وينسب الفضل في تطوير المناورات كأسلوب للقتال إلى القوات الألمانية (وذلك بعد أن تراجعت قدراتها الهجومية ورصيدها من المعدات والأسلحة في أعقاب هزيمتها في الحرب العالمية الأولى)؛ حيث طورت تكتيكاً جديداً للقتال، لم تعد فيه قوة النيران هي العنصر الحاسم، ولكن السرعة والقدرة على الالتفاف والمفاجأة. فالطرف المهاجم في إطار هذه النوع من الحروب يسعى للوصول إلى نقاط العدو الخلفية ومهاجمتها، فيما يسعى الطرف المدافع إلى استدراج العدو وقطع خطوط إمداده. بعبارة أخرى لم يعد التخطيط العسكري في إطار حروب هذا الجيل يستهدف مجرد التقدم إلى الأمام واستنزاف الخصم على نحو مستمر، ولكن تطويق العدو وإيقاع الهزيمة به عبر نقاطه الضعيفة.

وفي إطار حروب هذا الجيل حدث قدر من التحرر من مفاهيم الانتظام الشكلية، لصالح التركيز بدرجة أكبر على النتائج (المضمون)، فقد يتطلب "تحقيق النصر" التحرك بمرونة، ومخالفة بعض تعليمات القيادة لصالح

الاستجابة لما يستجد من تطورات ميدانية. كما أن الطريقة التي تصاغ بها الأوامر نفسها قد تغيرت، فلم تعد تحدد الأسلوب بقدر ما أصبحت تركز على الهدف المتوخى تحقيقه. ليصبح للمبادرات أهمية أكبر من مجرد طاعة الأوامر والالتزام الحرفي بها.

### حروب الجيل الرابع

تشمل الحروب التي يكون أحد أطرافها جماعة مقاتلة أو فاعل من غير الدول Non-state actor. وترتبط بظهور أشكال من القتال غير النظامي، القائم على إنهاء الخصم بطرق تختلف عن طرق الجيوش الحديثة. وقد ورثت حروب هذا الجيل العديد من صفات الجيل الذي سبقها؛ مثل المرونة واللامركزية وأولوية المبادرة على الطاعة، ولكنها اتصفت في الوقت نفسه بعدد من الخصائص الإضافية. ففي إطار حروب الجيل الرابع يختلط التخطيط الحربي بالسياسي، والمدني بالعسكري (أصبحت الشعوب مستهدفة مثلها مثل الجيوش)، والاستراتيجي بالتكتيكي، والأهم أن الشكل المركزي للحرب قد انتهى لصالح شكل جديد لا مركزي.

### خصائص حروب الجيل الرابع

أهم خصائص حروب الجيل الرابع عدم التناظر أو اللاتماثل بين الأطراف المتقاتلة في إطارها، بمعنى وجود تباين شاسع في القدرات والمنطلقات والأهداف بين الأطراف، فهي حروب بين جيوش وبين جماعات مقاتلة من غير الدول. هذه الجماعات المقاتلة قد تكون عابرة للقوميات، والأغلب ألا تكون

ذات انتماءات قومية أصلاً؛ فهي لا تُعرّف نفسها من خلال الانتماء لدولة معينة، ولكن بكونها جزءاً من تكوينات تقوم على أساس فكري أو أيديولوجي معين يوظف أساليب جماعات التمرد وحروب العصابات.

ومن المعتاد أن تضم هذه الجماعات المقاتلة تكوينات من المتطوعين المدنيين ممن قد يحملون جنسية الدولة الخصم نفسها. كما أن المقاتلين هنا لا يلتزمون بزي رسمي، ويصعب تمييزهم في كثير من الأحيان عن المدنيين، كما يصعب تمييزهم عن بعضهم البعض من حيث الهرمية. وبشكل عام لا توجد قيادات ثابتة لهذه التكوينات المقاتلة، وإنما هناك سيولة ومرونة كبيرة تعوق الخصم عن استهداف رموز هذه الجماعات.

وتستخدم هذه الجماعات وسائل غير تقليدية في القتال، ولا تلتزم في إطاره بالاتفاقات أو الأعراف المعمول بها بين الدول والجيوش المتحاربة. إذ تعتمد إلى استخدام كافة أشكال الضغط على الخصم، من خلال ضرب أهدافه السياسية والاقتصادية والهجوم المباشر على رموزه الثقافية (على اعتبار أن الثقافة هي الوقود الحقيقي الذي يغذي هذا النوع من الحروب)، كما قد تستهدف المدنيين (لإرغامهم على ممارسة ضغط على حكوماتهم لوقف القتال)، وذلك على امتداد المجتمع الذي يصبح بأكمله ساحة للمعارك<sup>(1)</sup>.

(1) Jason Vestdec, Fourth-generation Warfare, 2001, at: <http://www.theatlantic.com/magazine/archive/200112//fourth-generation-warfare/302368/>

وتتميز الجماعات المهاجمة في إطار هذه الحروب بأنها ليست ذات كثافة عددية، ولكنها تكتيكية وسريعة، الأمر الذي يضمن لها القدرة على المناورة والتحرك بسهولة وسرعة على الأرض، كما يحرم خصومها من الاستفادة من زيادتهم العددية وقدرتهم على الحشد. ولا تعتمد هذه الجماعات عن أى دعم (إمداد وتموين) مركزي، وإنما على الإمدادات اللوجيستية التي يمكنها حملها حتى ساحات المعارك.

أيضاً يتضمن هذا النوع من الحروب استخداماً واسعاً لأساليب الحرب النفسية والتلاعب الإعلامي والتدخل المعلوماتي<sup>(1)</sup>، لتوجيه الرأي العام في اتجاهات بعينها، ولهذا افترض البعض أن شاشة التلفاز قد تكون أكثر تأثيراً من الوحدات المدرعة في إطار هذا النوع من الحروب.

ومن ناحية المدى الزمني تعد حروب هذا الجيل طويلة المدى، ومن ثم لا يمكن حسمها من خلال ضربات استباقية أو مركزة، لعدم وجود مراكز لقوة الخصم. وإذا كان الاستراتيجي الشهير كارل فون كلاوزفيتز قد افترض أن الطرف المهاجم عليه أن يرد باستهداف مركز قوة الخصم، لإخراجه عن توازنه وكسر شوكته، فإن المشكلة في حروب الجيل الرابع أنها مصممة بحيث تحرم الطرف المهاجم من أن يجد مركزاً يستهدفه بضرباته المضادة.

---

(1) William Lind, The Changing Face of War: Into the Fourth Generation . Marine Corp Gazette, October 1989. Marine Corps Gazette, October, 1989, p. 24.

## المكون الثقافي في إطار حروب الجيل الرابع

إذا كانت "أزمة الدولة القومية" هي كلمة السر وراء انبثاق هذا النوع من الحروب، بوصفها الأزمة التي دفعت الأفراد إلى البحث ضمن الهويات البديلة، فإن الوقود اللازم لاستمرار هذه الظاهرة - وفقاً للنظرية - هو الانتماء إلى ثقافة تحرض على التمرد.

ويصرح منظرو حروب الجيل الرابع بوضوح أن الثقافة الأساسية المتمردة على الحضارة الغربية حالياً هي الثقافة الإسلامية. وعندما يُستخدم مفهوم "الثقافة الإسلامية" في هذا السياق يكون المقصود هو الإسلام نفسه. يقرر مايكل ليند هذا المعنى بعبارة صريحة بالقول إنه بعد أن "كمن في وضع دفاعي لمدة ثلاثة قرون، وتحديدًا منذ فشل العثمانيين في حصارهم لفيينا 1683، يعاود الإسلام الهجوم من جديد للتوسع على حساب الغرب، ولكن هذه المرة من خلال تكتيكات جديدة، تسعى لتغيير المجتمعات الغربية من داخلها، عبر التأثير على منظومة قيمها، ومن خارجها عبر شن حرب استنزاف بعرض العالم لإقناع الغربيين باستحالة هزيمة الإسلام أو القضاء عليه"<sup>(1)</sup>.

والحل الذي يقدمه ليند لمواجهة هذا "الخطر" يكمن في تحقيق نوع من "النقاء الثقافي"، والانغلاق في وجه كافة الثقافات التي تهدد كيان

(1) William S. Lind, Understanding Fourth Generation War. Small Wars Journal, September 2004.

الدولة والمجتمع في الغرب وعلى رأسها الثقافة الإسلامية، ووضع حد لظاهرة التعددية الثقافية التي "تعاني" منها معظم الدول الغربية.

وبخلاف الانغلاق الثقافي في الداخل يتوجه منظرو حروب الجيل الرابع بعدد من النصائح إلى صناع القرار في الولايات المتحدة والعالم الغربي، يأتي على رأسها ضرورة إيجاد همزة وصل مع المواطنين المحليين، وذلك في الحالات التي تتضمن تدخلاً عسكرياً في بلدانهم، بأن تكون الحملات العسكرية مصحوبة باستراتيجيات لكسب العقول والقلوب، وتقليل التعويل على الأنظمة الرسمية التي تتآكل شرعيتها، ويحذرون في المقابل من أن استخدام القوة الصريحة ضد المدنيين، سوف يدفع بالمزيد منهم إلى الارتقاء في أحضان الجماعات المقاتلة. كما أن التدخل العنيف عادة ما يسهم في تدمير الدول التي تتعرض لهذا النوع من التدخل، وهو ما يصب في مصلحة الجماعات غير الرسمية بطريقة مباشرة؛ حيث يساعدها على حشد قوتها ويكسبها المزيد من الشرعية في مقاومة القوات الغازية<sup>(1)</sup>.

---

(1) Max Boot, A How -To Manual: A Century of Small Wars Shows They Can Be Won, New York Times, 6 July 2003. Posted on the Council of Foreign Relations web site, at: <http://www.cfr.org/iraq/-manual-century-small-wars-shows-they-can-won/p6101>

ويؤكد هؤلاء على أنه حتى لو ترتب على ذلك النهج خسائر بالمفهوم التقليدي، كأن يفسر مسلك القوى الكبرى في هذه الحالة على أنه انسحابي أو تهادني أو حتى متخاذل، فإن النتائج على المستوى الاستراتيجي أو على المدى البعيد تبرر التمسك به، خاصة وأن ميزان القوة - في إطار حروب الجيل الرابع - ليس في صالح الدول الكبرى كما هو متصور، فهو لا يتحدد على أساس ما تمتلكه الدول من قوة النيران فقط، ولكن على أساس مقدرتها على تحديد النتيجة النهائية للمواجهة<sup>(1)</sup>.

وفي حال ما اضطرت الدول الكبرى إلى التدخل في نزاعات عسكرية من هذا النوع، فلا بد من أن يسبق ذلك القيام بمناورات تدريبية مشتركة في بيئات مشابهة لبيئة الحرب التي يفرضها هذا النمط من الحروب، كما توصي النظرية بإعادة التأكيد على المناورات باستخدام القوات الخفيفة، فحروب الجيل الرابع لا يمكن حسمها باستخدام الطائرات أو المدرعات أو أسلحة الدمار الشامل. ويلمح هؤلاء إلى أن أحد أسباب فشل القوات الأمريكية في تحقيق نصر حاسم في أفغانستان يرجع لعدم استيعاب هذه القوات للمفاهيم الجديدة للحروب، وإصرارها على مواجهة الجماعات غير النظامية بقوة النيران الهائلة والضربات الجوية، وذلك وفقاً لمفاهيم الحرب التقليدية القائمة على التقدم على الأرض<sup>(2)</sup>.

(1) Ibid.

(2) Russell W. Glenn, Randall Steeb and John Matsumura, Corraling the Trojan Horse: A Proposal for Improving U.S. Urban Operations

كما ينصح مطورو النظرية بالاعتماد على العناصر المحلية وتدريبها وإعادة تجهيز المؤسسات العسكرية الداخلية (في الدول المستهدفة) وتوفير المعدات العسكرية لها<sup>(1)</sup>. وفي حال عدم كفاية العناصر المحلية يتم اللجوء إلى استراتيجية العمليات المشتركة والاشتباكات المباشرة، التي تتضمن وحدات صغيرة العدد خفيفة التسليح، سريعة الحركة، وتجنب قوة النيران الثقيلة، وحروب الاستنزاف الطويلة، والقصف طويل المدى<sup>(2)</sup>.

---

Preparedness in the Period 2000 -2025. Santa Monica, CA: Rand Corporation, 08 June 2001.

(1) Ibid.

(2) Robert M. Cassidy, Why Great Powers Fight Small Wars Badly. Military Review, September - October 2002, pp. 41:53.

(3)

### نظرية واحدة وروايات متنوعة

على الرغم من أنها نشأت داخل مراكز الأبحاث الأمريكية، لتفسير وتبرير الصعوبات التي تواجهها القوات الأمريكية وحلفاؤها في مواجهة الحركات المقاومة (التي يصفونها بالإرهابية)، إلا أن النظام المصري شرع في استخدام نفس النظرية (في أعقاب 3/7/2013) لأغراض مختلفة، وصلت في تعارضها مع المقولات الأصلية إلى حد إصاق تهمة التسبب في ظهور هذا النمط من الحروب بالإدارة الأمريكية نفسها، وذلك بزعم رغبة الأخيرة في تفكيك الدولة وإفشالها كمقدمة لإحكام السيطرة عليها وعلى المنطقة ككل.

بشكل عام لا تختلف الرواية المصرية مع الرواية الأمريكية حول توصيف طبيعة حروب الجيل الرابع من حيث كونها حروباً غير نمطية، تعتمد على المعلوماتية والقوى الناعمة، ومن حيث كونها حروباً طويلة المدى، تنشأ بين الدول وبين جماعات (من غير الدول) صغيرة الحجم، مرنة التنظيم، محدودة الإمكانيات البشرية والمادية، تستخدم تكتيكات حروب العصابات لتحقيق أهدافها.

ما تختلف فيه الرواية المصرية عن الرواية الأمريكية يتعلق بالفاعل الرئيسي والهدف النهائي لهذه الحروب، فإذا كان الفاعل وفقاً للرواية الأمريكية هو الجماعات المتمردة التي لا تلتزم الطرق التقليدية في القتال، ولا تعترف بشرعية الدولة كتنظيم سياسي، وتهدد الهيمنة الغربية المسيحية على العالم، فإن الرواية المصرية تفترض أن الفاعل الأساسي في إطار حروب الجيل الرابع هو الدول والأنظمة العالمية الكبرى (وعلى رأسها أمريكا)، وذلك في إطار سعي الأخيرة لنشر الفوضى وزعزعة الاستقرار في المنطقة، بحيث تستمر في زعامتها للعالم من دون معوقات، ومن دون أن تضطر لخوض حروب فعلية. صحيح أن هذه الأطراف الدولية وفقاً للرواية المصرية تستخدم وتوظف الجماعات المسلحة والحركات الثورية والجماعات الفوضوية، (فيما يمثل تقاطعاً مع الرواية الأمريكية)، ولكن هذه لا تعدو أن تكون مجرد أدوات في أيدي آخرين، وليسوا فاعلين أصليين كما تفترض الرواية الأمريكية.

ويتسع تعبير "الأطراف الدولية" الذي تستخدمه الرواية المصرية ليصبح بمثابة "لافتة عريضة" تضم تحتها كل من يمكن تخيلهم من القوى الدولية، فواحد ممن يوصفون بـ "الخبراء الاستراتيجيين" المصريين اعتبر أن مصر في حالة حرب حقيقية مع كل من "الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي والأمم المتحدة وتركيا وقطر وإسرائيل وإيران"، معتبراً أن ثمة خيطاً دقيقاً يربط بين كل هذه الكيانات، وأن ثمة هدفاً نهائياً يجمعهم

يتمثل في نشر الفوضى الإقليمية، عبر تنظيمات وسيطة (تضم جماعة الإخوان، حماس، حزب الله، داعش، وغيرها من التنظيمات الإرهابية على حد قوله)<sup>(1)</sup>.

وتفترض الرواية المصرية أن حروب الجيل الرابع تمر عبر ثلاث مراحل رئيسية؛ الأولى هي زعزعة استقرار الدولة المستهدفة، والمرحلة الثانية إفشالها، وأخيراً تفكيكها وتقسيمها، وخلق واقع جديد على الأرض يخدم مصالح الأنظمة المتدخلة<sup>(2)</sup>. وتذهب الرواية المصرية أن هذا النوع من الحروب تم تطبيقه بنجاح في العديد من الحالات مثل السودان وسوريا والعراق فضلاً عن أفغانستان زمن الاحتلال السوفيتي؛ حيث تم تصوير المقاومة وقتها على أنها نوع من الجهاد ضد المحتل السوفيتي بمساعدة الولايات المتحدة، بينما كان الأمر في حقيقته عبارة عن خطة أمريكية لتحطيم الاتحاد السوفيتي، وإعداد جيل من الجهاديين لنشرهم في كل أنحاء العالم، واستغلالهم في الحروب الأمريكية التالية على العالم العربي

(1) حمدي بخيت، لقاء على قناة التحرير، على الرابط. <https://www.youtube.com/watch?v=siBwPNk6ujQ>

(2) انظر: عماد حجاب، الأهرام.. تكشف مخططات الإخوان في استخدام حروب الجيل الرابع لإثارة الفوضى وإنهاك المجتمع بالمظاهرات ونشر الشائعات والحرب النفسية لهدم مؤسسات الدولة، الأهرام، 25 نوفمبر 2014، على الرابط: <http://www.ahram.org.eg/NewsQ/341738.aspx>

والإسلامي<sup>(1)</sup>. وهو ما يجري - وفقاً للرواية المصرية - أمر مشابه له الآن من خلال الدفع بتنظيم داعش في سوريا والعراق ودعمه سرّاً للضغط على الأنظمة في المنطقة<sup>(2)</sup>.

أما عن الوسائل التي تستخدمها أمريكا وحلفاؤها لتنفيذ هذا المخطط - وفقاً للرواية المصرية - فتشمل "الميديا الجديدة" مثل وسائل التواصل الاجتماعي والإعلام الفضائي والإلكتروني، ومؤسسات المجتمع المدني، كما تُستخدم في إطار هذا النوع من الحروب الآليات النفسية مثل بث الشائعات، ونشر مشاعر الإحباط والغضب على نطاق واسع، واستثارة الأقليات، وإثارة الحساسيات العرقية والدينية، وتعبئة الشباب بأفكار سلبية ضد الدول العربية ومؤسساتها، ونشر البلبلة والتشكيك في المشروعات القومية، كما يتم توظيف الورقة الدينية من خلال إشعال حروب الفتاوى، فضلاً عن استخدام العملاء من النشطاء السياسيين<sup>(3)</sup>.

(1) انظر: طارق الشيخ، روسيا والصين في مواجهة حروب الثورات الملونة، الأهرام، 13 يونيو 2015، على الرابط: <http://www.ahram.org.eg/NewsQ/405595.aspx>

(2) المرجع السابق.

(3) انظر على سبيل المثال: محمد مجدي، عسكريون: الجيل الرابع من الحروب يدمر الدول ذاتياً بالفتن والشائعات، جريدة الوطن المصرية، 23 فبراير 2015 على الرابط: <http://www.elwatannews.com/news/details/669772>

وانظر أيضاً: شياء فرج، الشائعات من حروب الجيل الرابع وتنتشر كالنار في

كما تركز الرواية المصرية على الدور الذي تلعبه الأدوات السياسية في إطار هذه الحروب، معتبرة أن المظاهرات والمسيرات والإضرابات تكتيكات في إطار الجيل الرابع من الحروب.

وتفترض الرواية المصرية أن الهدف النهائي من وراء هذا النمط من الحروب هو التقسيم الداخلي للدول المستهدفة، وتفكيكها وإفشالها، وتدعو من ثم المواطنين إلى التكتل خلف قياداتهم السياسية لكسر وإفشال هذه السيناريوهات عبر التصدي لممثليها في الداخل وعلى رأسهم جماعة الإخوان وما يتفرع عنها من تنظيمات "إرهابية" أخرى في الخارج<sup>(1)</sup>.

وفي إطار هذه السردية اعتُبرت ثورات الربيع العربي البوابة التي تم من خلالها تسريب هذا المخطط<sup>(2)</sup>، فمن خلال إسقاط حكام المنطقة، وخلق جيل جديد من الحكام من الإسلاميين، أصبحت الأمور مرشحة للفوضى؛ حيث فقد الناس ثقتهم في هؤلاء الحكام، ومن ثم توالى

الهشيم، جريدة الدستور، 13 أغسطس 2015، على الرابط: <http://www.dostor.org/872169>

(1) انظر على سبيل المثال: لواء أ. ح. محمد الشهاوي، الأمن القومي وحروب الجيل الرابع، المصري اليوم، 13 نوفمبر 2014. على الرابط: <http://www.almazryalyoum.com/news/details/571509>

(2) إلى حد أن وصفها البعض بثورات الربيع العربي وليس العربي، انظر: علي محمود، الإعلام وحروب الجيل الرابع (4)، البوابة، على الرابط: <http://www.albawabhnews.com/1347340>

الأزمات السياسية، ووصلت حالة الاحتقان ذروتها. وهكذا فإن المؤامرة كانت "أمريكية التخطيط، محلية التنفيذ"<sup>(1)</sup>.

وقد لخصت سلسلة وثائقية أذاعها التلفزيون المصري الرسمي (على قناته الأولى والفضائية) هذه الرؤية على نحو تفصيلي<sup>(2)</sup>، باستخدام عناوين من نوعية "المؤامرة الشيطانية"، "الأيدي الخبيثة"، "قطار الربيع العربي والسائق الخفي". واستخدم معدوا هذه السلسلة ديباجة تتحدث عن رغبة قوى الهيمنة العالمية عبر التاريخ في السيطرة على هذه المنطقة من العالم، ووضعوا الأحداث التي شهدتها البلاد منذ نشوب ثورات الربيع العربي في إطار من الملاحم التاريخية، مفترضين أن المنطقة تخضع حالياً لهجمات مشابهة لما تعرضت له من قبل على يد الهكسوس والفرس والرومان والمغول والصليبيين وقوى الاستعمار الحديث، وافترض معدو الحلقات أن مصير المنطقة رهن بيد مصر، إذ "لم تتمكن قوى الشر العالمية في الماضي من بسط سيطرتها على المنطقة إلا عندما كانت مصر في أضعف أحوالها"، ولكن متى استردت وعيها واستيقظت، توقفت المؤامرات واندحر الأعداء.

(1) وليد حسنين، حروب الجيل الرابع والشرق الأوسط الجديد، العملاء والضحايا، مجلة الإذاعة والتلفزيون، 25 أغسطس 2015، على الرابط: <http://maspiro.net/files/9293-2013-09-17-02-11-31.html>

(2) بدأ عرض الجزء الأول منها الاثنين الموافق 25 نوفمبر 2013، والحلقات متاحة على الرابط: [https://www.youtube.com/channel/UCoIbPzkF8IHhAtbuMcMGL\\_A](https://www.youtube.com/channel/UCoIbPzkF8IHhAtbuMcMGL_A)

الخيوط الناظم لهذه السردية يتمثل في ذلك التصور الشمولي للتاريخ، والذي يرويه بوصفه قصة واحدة كبرى، في إطار من الإحساس المتضخم بالقومية، التي تبالغ في تصور حجم التأثير الذي يمكن أن تمارسه دولة واحدة في إطار التاريخ العالمي. ففي إطار هذا الطرح تم تصوير مصر على أنها الدولة المقدّر لها دحر قوى الشر وإعادة مسار التاريخ إلى وضعه الصحيح. فهي قادرة على إلهام جيرانها من العرب والعالم قيم الحق والخير، ومساعدتهم في التغلب على المؤامرة الشيطانية ضد الحضارة والمدنية.

أما عن عناصر هذه المؤامرة فمتعددة إذ تشمل: الماسونيين من أصحاب الخطط السرية للسيطرة على العالم، ومنظري الحرب الكبرى لإسقاط كل الأديان، وعبدة الشيطان، والنورانيين الساعين إلى تكوين الحكومة العالمية، كما تتنوع أسماء أبطال محور الشر المتآمرين إذ تشمل كل من نيتشه، وهتلر، وكيسنجر، وبرنارد لويس، وكذا تتعدد المذاهب السياسية والأيدولوجيات، لتضم كلاً من الفاشية والنازية والشيوعية.

استخدم معدو السلسلة حبكة ضعيفة الإحكام للربط بين كافة هذه المفردات والعناصر، فالماسونية العالمية خططت للإطاحة بحكم القياصرة في روسيا تمهيداً للشيوعية، التي أُنيط بها تحطيم الحكومات والمعتقدات الروحية، ثم جرى التخطيط على نحو ما للحرب العالمية الثانية للقضاء على النازية وتمكين الصهيونية، وبنفس الطريقة الغامضة تم التخطيط للحرب الكونية الثالثة التي عرفت بالحرب الباردة، والتي مكنت المارد الأحمر من

الصعود، قبل أن يتم تصويره كخطر على العالم الغربي، وعند نقطة معينة تم تحجيم المارد الأحمر خوفاً من انضمام دول جديدة له، وكان رجل هذه الخطوة هو جورباتشوف. وأخيراً تحققت للغرب الهيمنة الصريحة، بخروج أمريكا من عزلتها وقيادتها للعالم، ولتنفيذ هذا الغرض تم إنشاء "منظمة الثقافة العالمية الحرة"، التي تقوم على تعديل القيم الأخلاقية والثقافية وتغيير السلوك ونشر قيم السوق الاستهلاكي، ونشر الفنون والآداب الغربية لاختراق الشعوب، وقد ضمت منظمة الثقافة العالمية في عضويتها - وفقاً للسلسلة الوثائقية - كلاً من هنري كيسنجر، ورونالد ريغان، وبرتراند راسل! وتفترض النظرية أنه بعد تراجع الهجمة الاستعمارية العالمية، انتقلت الدول الاستعمارية إلى آليات جديدة للسيطرة على الدول ذات الموارد المادية والاستراتيجية وفي مقدمتها الدول العربية، وتستعرض الحلقات في هذا الإطار "الوثيقة الخطيرة" المنسوبة إلى المستشرق برنارد لويس لتفتيت العالم العربي إلى دويلات على أسس الدين والعرق، وتقسيم مصر إلى خمس دويلات، وجعل إسرائيل هي السيد المطاع، كما تفضح الحلقات المتعاونين مع لويس مثل صامويل هانتنجتون وفرانسيس فوكوياما ورجب طيب أردوغان<sup>(1)</sup>، ودولة قطر وقناة الجزيرة.

(1) يوصف رجب طيب أردوغان من قبل الإعلام الرسمي أنه ذراع أمريكا الأيمن في المنطقة، والمكلف بوضع مشروع الشرق الأوسط الكبير موضع التنفيذ، وذهب البعض إلى أنه حظي بالحصول من الولايات المتحدة على الخريط السرية لتقسيم المنطقة. انظر: علي محمود، الإعلام وحروب الجيل الرابع (4)، البوابة، 14 يونيو 2015، على الرابط

<http://www.albawabhnews.com/1347340>

أما عن أدوات المؤامرة فمتعددة؛ فهناك الإنترنت واليوتيوب الذي يمثل الإعلام الجديد، وهناك أيضًا القائمون على مواقع التواصل الاجتماعي، القادرون على حشد الشباب، وهناك مؤسسات المجتمع المدني: وفي مقدمتها المعهد الديموقراطي، المعهد الجمهوري، معهد كارنيجي، فريدم هاوس، وغيرها. ولا تنسى الحلقات أن تشير على استحياء إلى دور الأنظمة العربية المستبدة التي ساهمت في تردي الأوضاع المعيشية، وانتشار البطالة والجهل وقمع الحريات، وهو ما أدى إلى سقوط بعضها مثل أنظمة ليبيا واليمن.

وفي محاولتها الإجابة عن سؤال: هل "كان وراء الثورات أشخاص طبيعيون أو جهات ما؟" تفترض الحلقات أن مواقع التواصل الاجتماعي كانت إحدى أدوات الحرب النفسية التي أدت لنشوب مثل هذه الثورات. وتخص بالذكر صفحة "كلنا خالد سعيد" التي لعبت دورًا كبيرًا في الحشد والترويج لثورة يناير، مع التأكيد على أن أحد أفراد جماعة الإخوان كان هو المؤسس لهذه الصفحة، كما تشير لموقع رصد، الذي تصفه بأنه مارس كل أنواع التضليل، واستخدم لقطات مفرقة لقتلى وجرحى ومصابين من اليمن وغزة والمغرب، لتهميش الجمهور، ومحاولة شيطنة أجهزة الدولة، والإيقاع بين الدولة والشعب.

### مقارنة الرواية المصرية لحروب الجيل الرابع مع الرواية الأمريكية

للوهلة الأولى يبدو أن تشويهاً كاملاً مارسته الرواية المصرية لنظرية "حروب الجيل الرابع"، فقد عكست مقولاتها الأساسية، وجعلت من الدول الكبرى مستفيداً من نشر الفوضى وليس ضحية لها

كما في الرواية الأمريكية. ومن الأمور اللافتة أن الخطاب الإعلامي المصري يستعين في هذا الصدد بمحاضرة شهيرة للبروفسور الأمريكي ماكس مايوراينج ألقاها في معهد الأمن القومي الإسرائيلي محذرًا فيها من امتداد أثر حروب الجيل الرابع إلى الولايات المتحدة وإسرائيل، ليصور (أي الإعلام المصري) هذه المحاضرة على أنها شرح للطريقة "الخفية" لكل من الولايات المتحدة وإسرائيل في السيطرة على العالم وعلى المنطقة<sup>(1)</sup>.

ورغم هذا التباين الكامل فإن هناك عناصر تتقاطع فيها الروايتان:

نقطة التقاطع الأولى تتمثل في انطلاق كلتا الروايتين من محاولة لتبرير الفشل وعدم إمكانية التنبؤ به أو التعامل مع نتائجه. فعلت هذا الرواية الأمريكية لتبرير عجزها عن المواجهة والتصدي لأزمات كان يُفترض بفعل فارق القوة أن تكون محسومة لصالح الطرف الأمريكي، مثل توقع ودرء أحداث 11 سبتمبر، ومثل التغلب على حركة طالبان وتنظيم القاعدة، ومثل عجزها عن تزويد حلفائها بالمعلومات والقدرات التي تمكنهم من مواجهة أطراف أضعف، مثل فشلها في حماية إسرائيل من ضربات (1) محمد بغدادي، الغرب يدير حروب الشرق الأوسط بالريموت كنترول، الأهرام المصرية، 8 أغسطس 2014.

وانظر: حسين خلف موسى، الجيل الرابع من الحروب بين التنظير والتطبيق العملي في دول العالم العربي، المركز الديمقراطي العربي، على الرابط: <http://democraticac.de/?p=16881>

المقاومة الفلسطينية وتنظيم "حزب الله" الشيعي رغم أساليبهما البدائية وقدراتهما المحدودة<sup>(1)</sup>.

وفعل هذا الجانب المصري حين وظّف النظرية لنفس الأسباب، أي لتبرير قصوره عن مواجهة ما يسميه "الإرهاب". فالنظرية وفقاً للرواية المصرية تصوّر العدو (الإرهاب) على أنه ذو قدرات استثنائية، فهو يستخدم تقنيات الحرب الذكية والحرب النفسية وحرب العصابات وحرب المعلومات، وأي نمط آخر من التقنيات غير النظامية، التي لا يمكن توقعها أو التعامل معها<sup>(2)</sup>. وليس خافياً أن تصوير "العدو" بهذه الصورة الخارقة يحمل تبريراً ضمنياً للعجز عن القضاء عليه أو هزيمته!

نقطة التقاطع الثانية تتمثل في "تبرير الاستخدام المفرط للعنف"، ففي إطار حروب الجيل الرابع، وبفعل الطبيعة الشريرة للعدو وأعدائه، تطرح نظرية حروب الجيل الرابع كمسوغ لإقناع الرأي العام (الداخلي والدولي)

(1) George Emile. Irani Irregular Warfare and Non -State Combatants: Israel and Hezbollah. Comment. October 2007. at: <http://www.comw.org/rma/fulltext/0710irani.pdf>

(2) انظر على سبيل المثال: أحمد الطحاوي - دعاء سامي - بهاء المهدي، GW4، حروب يعجز إبليس عن مواجهتها، إسقاط الدولة لنفسها، أحدث حيل الجيل الرابع الشيطانية، الأخبار المصرية، 5 / 7 / 2015. وانظر: وجدي زين الدين، حروب الجيل الرابع، الوفد، 13 يوليو 2015، على الرابط: <http://alwafd.org/essay/868>

بضرورة وعدالة الاستخدام المفرط للقوة، وسقوط أعداد كبيرة من الضحايا (من المدنيين). فعلت هذا الإدارة الأمريكية وهي تواجه المقاومة العراقية والأفغانية عبر استخدامها للقوة غير المتكافئة، وفعله أيضًا النظام المصري، وهو يواجه القوى المعارضة لترتيبات 3/7/2013. توظيف نظرية "حروب الجيل الرابع" أعطى مسوغًا لكلا الطرفين للمبالغة في استخدام العنف بكافة صورته، على اعتبار أن الطبيعة الخاصة للعدو بوصفه عدوًا وجوديًا تبرر مثل هذا العنف وتضفي عليه شرعية وقبولًا لدى العامة، الذين ربما طالبوا بالمزيد من العنف، لحسم هذه الحرب التي تتهدد وجودهم وأوطانهم.

"البعد التأمري" أيضًا يبدو كامنًا في كلا الروايتين؛ فالطرف الأمريكي يتحدث عن مؤامرة إسلامية بعرض العالم، لاستعادة أمجاد الخلافة، وهزيمة الغرب المسيحي، من خلال هدم شرعية الأنظمة السياسية الموجودة حاليًا، وبناء شرعية جديدة قائمة على توحيد المسلمين في إطار كيان سياسي جديد. الرواية المصرية تتبنى أيضًا التفسير التأمري وتتفق مع أصحاب الرواية الأولى في مقولاتها حول الخطر الإسلامي وخوفها من مشاريع الوحدة الإسلامية، ولكنها لا تتوجه بمخاوفها هذه للداخل، بقدر ما تتوجه بها للخارج (الذي يفترض أصحاب هذه النظرية أنه منبع هذه التهديدات!). فالداخل المسلم لا يناسبه "في الغالب" حديث التحذير من الخطر الإسلامي وعودة الخلافة، ولكن يناسبه أكثر التحذير من خطر تفكك الدولة والقضاء على ريادتها وأهميتها.. الخ.

إذًا، الحديث عن المؤامرة موجود عند الطرفين، وبه تقاطعات ولكنه غير متطابق، فالطرف المصري يتهم الطرف الأمريكي بأنه ضالع في المؤامرة التي تتهدده، فيما الطرف الأمريكي يُحمّل الأنظمة السياسية للدول العربية (ومن بينها النظام المصري بطبيعة الحال) قدرًا كبيرًا من المسؤولية عن ظهور الجماعات المتمردة التي تهدد مصالحه في المنطقة. ولكن مؤخرًا بدأت لهجة الاتهام تخفت وربما تزول تمامًا، واستعادت الأطراف مواقفها التقليدية، وحدث نوع من التناغم في المصالح بين النظام المصري والولايات المتحدة. فبعد فاصل من الاتهامات التي وجهها الأول للثانية بالتسبب في فوضى الشرق الأوسط، والرغبة في اقتطاع أجزاء من أقاليمه، وإرهاق دوله وتمزيقها، إذًا بالعلاقات تتحسن وتتظم لتصبح أفضل مما كانت عليه قبل نشوب ثورات الربيع العربي، فالمساعدات يتم استئنافها، والسفراء يرجعون إلى ممارسة أعمالهم الطبيعية، والوفود الرسمية تتحرك بسلاسة، وكأن شيئًا لم يعكر صفو العلاقة بين الطرفين.

ويمكن تفسير هذا التقارب بتعويل الولايات المتحدة على حلفائها الإقليميين لمواجهة هذا النوع من الحروب، فهذه الأنظمة بحكم التعريف، أقدر على تنفيذ حزمة التوصيات التي يقترحها منظرو حروب الجيل الرابع، فيما تظل الاستراتيجية الحربية الأمريكية حريصة على عدم التورط في المباشر في أزمات المنطقة والاحتفاظ بأقل خسائر في مواجهاتها.

وبعد،،

مع تفجر ثورات الربيع العربي، بدأت أحداث المؤامرة، واليد الخفية، والفوضى الخلاقة، وحروب الجيل الرابع، تتردد على استحياء في أروقة الأنظمة العربية، وكانت الحجة المتكررة بين منظري هذه الأنظمة أن الثورات ما هي إلا ترجمة لمؤامرة الفوضى المراد إغراق بلدان العالم العربي فيها لتفكيكها وتدميرها.

وكان السؤال الذي يثور بمناسبة هذا التحليل هو: ما الذي تمثله الدول العربية من تحدٍ للغرب، لكي يلجأ إلى تفكيكها عبر نشر ثورات الربيع العربي بها، هل أنظمتها (المعتدلة) تهدد أمنه أو مصالحه، أو أمن ومصالح ربيته إسرائيل على نحو جدّي؟ ولما كانت الإجابة عن هذه الأسئلة هي النفي، كان استمرار الحديث عن المخطط الخارجي للتفكيك يثير علامات استفهام إزاء هذا المنطق المتمسك بفكرة تأمر العالم على منطقة تمتلك فعلياً كل مقومات الضعف.

وعلى العكس من هذا المنطق بدت الثورات كمحاولة تكاملية على المستوى الشعبي في إطار أوطان ينخر فيها التفكك على المستوى الرسمي، ومحاولة لتخليص المنطقة من مظاهر الاستقرار الزائف (القائم على الحفاظ على الوضع الراهن)، وصولاً إلى استقرار جديد تكمن عوامل رسوخه في التكامل الطوعي للأفراد والشعوب.

لهذا كان من المفترض أن يُنظر إلى الثورات على أنها تمثل تحديًا للغرب؛ فهي تُفقد حلفاءه، وتهدد مصالحه، وفي هذا ما يفترض أن يدفعه إلى محاربتها ومحاوله وأدها، لا تشجيعها ورعايتها. ولكن خطاب المؤامرة كان يقلب هذه البدايات، ويصر على أن الثورات ما هي إلا تجلُّ من تجليات الجيل الرابع من الحروب. وقد نجح هذا الخطاب في أن يؤسس لثورات مضادة استعادت أوضاع ما قبل الربيع العربي في عدد من الدول، وأقامت شرعيتها على أساس من مقولات محاربة الفوضى والتفكيك.

ما لم يلتفت إليه مرددو مثل هذه الكليشيات هو أن المنطقة لم تتمتع منذ استقلال دولها عن الاستعمار الغربي بأي تكامل حقيقي، ولم تكن آمنة من التفكك في أي مرحلة من مراحل تاريخها الحديث، وإنما كان تماسكها مفروضًا على نحو قسري، من قبل أنظمة تولت الحكم في أعقاب الاستقلال، ولم تستطع تجاوز العقبات والتحديات التي خلقها الاستعمار بقدر ما مثَّلت بشكل أو بآخر مظهرًا من مظاهر استمرارها.

ومن هنا فإن نسبة «الفوضى» إلى الثورات تبدو نسبة ملفقة، كما أن القول بأن الأزمات الحالية هي في مجملها صناعة خارجية يحمل تبرئة لا تستحقها أنظمة المنطقة، خاصة أنها منذ تسلمت الحكم وهي ترعى ميراث التقسيم الذي ورثته عن الاستعمار، وأسهمت من جانبها في بلورة عدد من المشاكل التي ربما لم تكن بهذه الحدة في زمن الاستعمار نفسه.

أما فيما يتعلق بتقييم النظرية وفقاً لروايتها الأصلية، فإنها وعلى الرغم مما تعانيه من مشاكل، إلا أنها تلفت الانتباه إلى نقاط مهمة، أبرزها تصاعد درجة "الفوضى" في إطار ما يوصف بـ"النظام" العالمي الحالي، وتدق ناقوس تحذير بخصوص فشل الطرق التقليدية للتخطيط الإستراتيجي في التعامل مع أزمات الواقع الجديد، واختلاف مفهوم الحرب، أو بالأحرى تعقده<sup>(1)</sup>.

فالحرب المعاصرة لم تعد مجرد قرار تأخذه الدولة أو النظام السياسي، وإنما أصبح بمقدور الأفراد وبمساعدة وسائل التواصل الحديثة شن هجمات ذات فاعلية معتبرة. المعادلة الآن تجعل من الأفراد خصماً حقيقياً في مواجهة الدول، بحيث لم يعد من المثير للدهشة أن يظهر على شبكة المعلومات الدولية كتيبات بعنوان "دليل المبتدئين في مواجهة الصواريخ الذكية" أو دراسات مجهولة المصدر عن طرق "مهاجمة الأهداف الاستراتيجية".

---

(1) من نماذج الدراسات التي تناقش التعقد في ظاهرة الحرب، وعلاقة ذلك بانشقاق مفهوم حروب الجيل الرابع، انظر:

Michael F. Beech, Observing Al Qaeda Through The Lens of Complexity Theory: Recommendations For The National Strategy to Defeat Terrorism, USAWC Strategy Research Project, U.S. Army War College Carlisle Barracks, Pennsylvania, 19 March 2004.

وفي هذا الإطار ليس من الضروري أن تعاد 9 / 11 بحذافيرها، ولكن ربما عن طريق هجمات على نطاق أضيق، مثل تلك التي تستهدف أنابيب نقل النفط، أو المواقع الإلكترونية.

هذه النقاط تبدو غائبة عن معظم من يحذرون في إطار "النسخة المصرية" من هذه الحروب، ممن يتصورون إمكانية مواجهة ما ترصده النظرية من تعقد في ظاهرة الحرب بالحديث عن المؤامرة السرية التي يمكن كشفها وإحباط مساعي القائمين بها، في إطار توظيف سياسي يروج لإمكانات "النظام الحالي" ويحاول تصويره بصورة القادر على التصدي لحركة التاريخ ومحاربة العالم المتآمر به من كل صوب!